الزعيم وفكرة الزعامة
في تاريخنا الحديث

أنيس صايغ

بدأ تململ العرب السياسي قبل ان يكون لهم حظ في قيادة تمسك بزمام التململ وتديره نحو وجهة معينة. وحصل التململ نتيجة ظروف واحداث معينة : كخضوع الجزء الاكبر من الوطن العربي للاستعمار (التركي في آسيا والاوربي في شمالي افريقيا) ولما يحفل الاستعمار به عادة من قهر للنفس وتحد للكرامة ، من جهة ، وانفتاح العقل العربي ، من جهة اخرى، على التراث العربي القديم وعلى الفكر الاوربي وعلى ما حفلا به من قيم انسانية ومن تصوير لحياة جميلة يفتقدون لها . وادرك العرب ، بفضل هذين العاملين ، ان الاوضاع التي كانوا يمرون بها ليست طبيعية . فغضب نفر منهم على الاتراك والانكليز والفرنسيين . وانتشر الغضب في الامة وتحول الى حركات واحزاب واشتعل في ثورات ، بعضها اقليمي وبعضها عام ، الى منتصف هذا القرن . حصل هذا ، وتطور التململ الى بوادر وعي ثم الى وعي ضيق النطاق ثم توسع الى وعي اكثر شمولا ، وزمام الاحداث منفلت ، تتلاعب به الظروف وتتبادله الايدي ، الواحدة بعد الاخرى دون تصميم ولا نظام ، ايدي القيادات التي حاولت ان تسير الامور ففشلت . حتى الى ما بعد حرب فلسطين ، وهي النكبة الكبرى في تاريخ العرب الحديث ، وليس لهم زعامة تتحمل مسؤولية الاحداث السابقة او الآمال المقبلة . سارت العربة بتعثر واضطراب ، في النصف الاول من هذا القرن ، دون قائد يقيها السقوط ويمضي بها نحو الهدف المرجو ، دون مسؤول يتحمل حساب انقلابها او تأخرها او ضياعها .

لم يجهل العرب حاجتهم الى ايدٍ حازمة تتولى قيادة العربة وتمسك بزمام خيلها . بل انهم اسرفوا في تصور شخصية هذا القائد وتحديد الصفات المطلوبة منه ، واشتطت بهم احلام اليقظة التي تمثل القائد فيها منقذا للامة يضرب التنين بسيفه دون ان ينزل عن ظهر جواده ، حتى رافق التململ السياسي الذي سبق الوعي القومي تخيل شائع للبطل المنقذ يحدد ابعاده ويرسم معالمه ويقرر هويته ، فاقترن التململ السياسي بعملية البحث عن رجل تطابق صفاته ومعالمه الصورة المرسومة في الاذهان ، واصبحت الدعوة الى الجهاد صنوا لدعوة اخرى : ايجاد بطل يتولى ادارة هذا الجهاد ومسؤوليته .

اشترك رجلان ، في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، في رسم صورة الزعيم العربي

المرجو . ومن سخريات القدر الا يكون اي منهما عربيا . ومع هذا اصبحت الصورة هي الشكل التقليدي الشائع للزعيم العتيد . من جملة من زار ارض العرب في القرن الماضي حكيم من الشرق وملك من الغرب . زائران حاجان ، محسنان مستعطيان ، مبشران مهيجان ، طالبا بركة من ارض فاضت بالبركات وواهبا وعود لارض تعطشت للاماني ، لم يلتقيا ولم يشتركا بعاطفة ولا بمبدأ . ولكنهما ، معا ، حددا للعرب صورة الزعيم المطلوب .

نسب كتّاب العرب ومؤرخوهم الى السيد جمال الدين الافغاني انه قال ، في معرض الحديث عن مصير اهل الشرق المؤسف الذي آلوا اليه ، ان حاجة الشرق انما هي الى « مستبد عادل ». ولكن محمد (باشا) المخزومي، الوجيه البيروتي الذي رافقه وتتلمذ عليه طويلا وسجل اقواله حكمه في كتاب قيم، يضع النص بشكل آخر : « لا تحيى مصر ولا يحيى الشرق بدوله واماراته الا اذا اتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا » .

اما ضيف الشرق الآخر ، الامبراطور الالماني وليم الثاني المعروف عند العرب بغليوم، فان مشاركته الهموم العربية لم تتعد حد مخاصمة دول شاركت الامبراطور في الثقافة والمعتقد ولكنها طمعت بمستعمراته وطمع بمستعمراتها مثلما طمعت هي ، وربما هو ايضا ، بارض العرب. زار الامبراطور، خلال تجوله في البلاد السورية كجزء من رحلته في السلطنة العثمانية خريف ١٨٩٨ ، قبر صلاح الدين الايوبي في جوار الجامع الاموي بدمشق ، وكان القبر من قبل مهملا وشبه منسي ، ووضع عليه اكليلا ثم القى خطبة . اما الاكليل، وقد خطفه الانكليز فيما بعد كغنيمة حرب ، عندما دخلوا دمشق ليضعوا فيصلا عليها كخليفة لصلاح الدين ، فقد ادى دور تاج: تاج وضعه رجل اجنبي على رأس خصم حارب اجداده، واشتهر بمحاربة اجداده، يدين بمذهب لا يقبل التيجان، ليملك شعبا لا يقبل بالالماني صانعا للتيجان ولا يقبل بالكردي حاملا لها . واما الخطبة التي القاها الزائر امام جمع من وجهاء البلاد ومسؤوليها ، فقد اضفت على مجموع هذه التناقضات ثوبا زاهيا : اكبر ملوك اوربا ، صديق السلطنة وحبيب المسلمين ، عدو بريطانيا وفرنسا وروسيا (وهم مقتسمو ارض الاسلام) يحج الى قبر بطل الشرق الذي استرجع الارض المقدسة ويبايعه رمزا للزعامة العربية.

هذان هما التحديدان للزعامة العربية اللذان خلفهما القرن التاسع عشر للقرن الحالي : شخصية « صلاح الدين » ، « القوية العادلة ». هذا هو امل الشرق . وهكذا يكون المهدي القومي ، في وقت جاء فيه اكثر من مهدي ديني . انتشر التحديدان بسرعة في شعب جائع للزعامة . وترسخا مع الايام ، مع ازدياد الحاجة الى المهدي القومي : بوقوع الارض العربية باسرها (باستثناء اواسط شبه الجزيرة العربية وغربيها) تحت السلطة الاجنبية ، ثم بتقسيمها ، وهي تحت الاستعمار وبعد تحريرها ايضا ، الى دول تتنابذ وتتخاصم ، ثم

تعريضها لصليبيات من نوع جديد ، صليبيات حديثة اخطر من القديمة، وباستمرار المفاسد العثمانية في العهود الوطنية، وببقاء شرور الجهل والمرض والفقر والظلم والكبت والاستثمار. ان مـا حملته الايام المتعاقبة على العرب من مزيد من المآسي يقابله مزيد من الامل بالخلاص (بفضل الوعي والمعرفة) قوّى التخيـل العربي لشخصية الزعيم المنتظر وعمه وقربه من الطبيعة، حتى اصبح تعبيرا « صلاح الدين الجديد» و«المستبد» (او « القوي ») « العادل » عنصرا رئيسيا في آلاف الخطب وآلاف المقالات ومادة حديث يتلهى بهـا السياسيون والنظريون والحالمون والمتألمون واللاهون وحلاّل المشاكل .

من اكوام الكلام الكثير الذي قيل في هذين الوصفين للزعيم المرجو نستطيع ان نحدد الآمال المعقودة عليه والمطاليب المنتظرة منه: تحرير الوطن من السلطات الاجنبية وتوحيد اقطاره في دولة قومية واحدة ، كما فعل صلاح الدين ، واقـامة حكم حازم مهـاب قوي يعدل بين المواطنين ويقضي على المظالم الكثيرة ، كما رجا الافغاني . هذان المطلبان ، اذاً ، يكمل واحدهما الآخر ويريان في العهد العتيد حكما صالحا يحقق الآمال العربية على الصعيدين السياسي والاجتماعي .

الوجاهات الدينية – الاجتماعية والزعامات السياسية

حكمت عقلية عصور الانحلال الخلقي والحرمان والتمييز الطائفي والطبقي والكبت والجهل والفقر والخضوع للاجانب وتحكم الخرافـات ، ان يكون الزعيم زعيما بالوراثة . وجعلت الاهمية الكبرى في تقرير الزعامة للمركز، وخاصة المركز العائلي ومدى الوجاهة والعراقة فيه . وقد استغلت عقلية العصر ، في اتجـاهـا المذكور ، بعض الاختبـارات والتصرفات التي قام بها المجتمع الاسلامي في اول عهده حتى اصبحت تراثا يتمسك المتأخرون به تمسكَ الاوائل بدون تفهم صحيح للظروف التي دعت الى اجراء هذه التصرفات في عهد معين قبل ثلاثة عشر قرنا .

كان الخلفاء الراشدون الاربعة ، الذين استلموا ادارة الدولة الاسلامية في احرج ايامهـا بعد وفاة الرسول ، انسباء الرسول واصهاره . وكانوا كلهم من قبيلة قريش ، وقد نقل اولهم ، ابو بكر الصديق ، الى جموع المسلمين آنذاك حكم الرسول القاطع بان « قريش ولاة هذا الامر » . وظلت قريش تحتفظ بالخلافـة تسعمائة سنة على الاقـل ، وحتى حينما كان المسلمون غير العرب يستولون على مقاليد الحكم الفعلي ويديرون الدول كانوا يتركون الخلافة لبني قريش . العثمانيون ، في القرن السادس عشر اسميا وفي القرنين السابـع عشر والثامن عشر فعليا ، بدأوا يخرجون على هذه القاعدة باستيلائهم على الخلافة لانفسهم .

الواقع ان الرسول حذر من اعطاء الخلافة لبني هاشم ، اي لعائلته . وقد رأى خطرا في احتـكار العائلة الواحدة للنبوة والخلافة معا . لذلك اراد الخلافة لقومه خارج صفوف

عائلته . ويعبر عن ذلك قول شهير للحسن بن علي : « ابى الله ان يجمع النبوة والخلافة فينا » . الا ان ذلك لم يمنع قيام دول اسلامية كثيرة تنتسب الى الرسول انتسابا عائليا مباشرا . فانتسب العباسيون الى عم الرسول (العباس نفسه ، الذي رفض الرسول توليته منصبا عاليا خوفا من الاحتكار العائلي) . وانتسب الفاطميون الى فاطمة بنت الرسول ، وانتسب العلويون الى علي صهر الرسول ، وانتسب الزيديون الى زيد حفيد الرسول . وكان علي ، في الحقيقة ، اول شخصية عربية رمزت الجماهير العربية الى زعامته بتصويره راكبا جواده يخوض المعارك ضد الباطل — وهي صورة رمزية تناقلتها الاجيال العربية وابدلت شخصية راكب الجواد اكثر من مرة ، الا انه كان من آل الرسول في معظم الاحيان. حتى اليوم ، في الستينات من القرن العشرين ، وعدد الملوك العرب اربعة فقط ، يحمل احدهم لقب « امير المؤمنين » ، بينما يترأس اثنان طائفتين دينيتين ولهما صفة دينية لا تقل اهمية عن الملك ، وينتسب ثلاثة منهم الى آل الرسول انتسابا مباشرا . اما الملوك العرب الثلاثة المخلوعون في السنوات العشر الاخيرة ، فكانوا هم ايضا من السلالة النبوية .

قلت ان العثمانيين سرقوا الخلافة من آل قريش وادعوها لانفسهم بالتدريج. ولكنهم لم يتنكروا ، ولا حاولوا ان يتنكروا ، للتقاليد التي جعلت آل قريش واقارب الرسول المنتسبين اليه زعماء ومسؤولين محليين ، في السياسة والمجتمع والاقتصاد والعلم ، عن المسلمين العرب . بل هم مكنوا هذه التقاليد ورعوها . ارادوا ، اولا ، ارضاء الجماهير العربية التي حرموها من الاستقلال السياسي ومن حق الخلافة ؛ وارادوا ، ثانيا ، الاحتماء وراء هذه الزعامات المحلية العريقة ، اذ كانوا يملون ارادتهم على الزعماء الذين يقومون بالتنفيذ . وكسب الحكام الاتراك ، بممارسة تلك السياسة ، سكوت الشعب ورضى الزعماء ، معا . والهوا الشعب ، ولو مؤقتا ، عن مطلب حقه بالخلافة وحقه بالاستقلال ، اذ اكتفى الشعب بتولية زعماء عرب من آل الرسول عليه تولية محلية . ذلك ان الحكم المحلي والقضاء والافتاء ، وشؤون التعليم ، ومصادر الثروة ، والوجاهة ، كلها كانت بيد العائلات ذات النسب الشريف . فكانت طبقتا الاشراف والعلماء تتحكمان بالمجتمع الاسلامي في السلطنة كلها .

حتى وقت متأخر والطرق التي توصل اليها الى الزعامة مغلقة امام اغلبية افراد الشعب.

ان تقسيما معينا سد خلو المجتمع الاسلامي من الالقاب والطبقات ، ذلك الخلو الذي اعتز التراث العربي به وفاخر التراث العالمي. فبقدر ما افاد العرب من المساواة التي احدثها الاسلام وامر بها دفعوا ثمن تقسيم آخر حصل بعد وفاة الرسول وتعمق مع الايام وازداد قوة حتى اصبح في منتهى الخطورة : اعني به تقسيم الجماعة الاسلامية الى اشراف واسياد

من جهة، وغير اشراف واسياد من جهة اخرى، تقسيما عميقا اساسيا، بحيث كان الاشراف والاسياد (حتى الفقراء منهم نسبيا) هم الطبقة المحظوظة (ولو معنويا) ، وهم المتميزون، لهم صفاتهم الخاصة ، ولهم شعاراتهم والبستهم وتصرفاتهم الخاصة ، ولهم ، فوق ذلك ، حقوقهم الخاصة التي تحتم على الرعية تأديتها نحوهم باطاعة واجلال وتكريم . كان اللون الاخضر علامة خارقة لهم ، لا يجرؤ « عامي » على لبسه لانه من اختصاص المحظوظين . وكان الانتساب الى هذه الطبقة ، بل التقرب منها ومصاهرتها ان امكن ، شرفا لا يعدله شرف آخر . وكثيرا ما حرم « عامي » من هذا الشرف حتى ولو كان رفيع المركز وعالي المنصب وكبير الثروة . ففي مطلع القرن العشرين سيق كبير صحافيي مصر الى القضاء بتهمة الاقتران بابنة احد الاسياد — ولم يشفع للصحافي (الشيخ علي يوسف) انه كان من رجال البلاط ورئيس حزب سياسي واحد كبار رجال البلاد العاملين في السياسة والمجتمع بوجه عام . ذلك انه لم يكن يؤثر في المركز الاجتماعي للمواطن درجة رقيه او نوع عمله او مقدار ثروته بقدر ما كان يؤثر فيه مدى انتسابه لهذه الفئة الممتازة . لذلك كان الناس يلجأون الى هذه الفئة ، عند الملمات ، وكانوا يوكلونها الحكم المحلي ، ويتقاضون لديها ويحتمون بها. وكانوا ، مقابل ذلك ، يعلنون لها الخضوع التام .

لم يكن من المعقول ان تظهر زعامة سياسية لا تتمتع بهذه الوجاهة الدينية — الاجتماعية السلالية ، ما دامت جميع مصادر الزعامة واطاراتها ترتبط بالوجاهة المذكورة . لذلك انتمى الى هذه الطبقة اغلب الزعامات السياسية التي ظهرت في القرن العشرين بعد زوال الحكم التركي ، تلك الزعامات التي تكونت بفضل مقاومتها للاتراك او الانكليز او الفرنسيين او الايطاليين او الاسبانيين ، او بفضل دعوتها للاصلاح الديني او السياسي ، او بفضل العمل في حقول التعليم والقضاء .

كان من الاشراف والاسياد من قاتلوا الاتراك في انحاء متعددة من شبه الجزيرة العربية في اوقات مختلفة من القرن الماضي ومطلع هذا القرن (كالامام يحيى و الادريسي والهاشميين)، وقادوا الثورات المحلية في مصر ضد نابوليون ثم ضد محمد علي (محمد كريم وعمر مكرم ومحمد المحروقي ومحمد السادات) ، وقادوا الثورات ضد الاحتلالات الاجنبية في افريقيا الشمالية العربية (عبد القادر الجزائري واحمد عرابي وعبد الله النديم وعبد العزيز جاويش والمهدي وعبد الكريم الخطابي وعمر مختار)، وفي المشرق العربي ضد الاحتلالات الانكليزية والفرنسية (محمد البصير وطالب النقيب ورشيد عالي الكيلاني في العراق وامين الحسيني في فلسطين) . وكان الامر على صعيد الدعوة الفكرية والدينية مثله في الكفاح والنضال . فانتمى الى طبقة الاشراف والاسياد معظم دعاة الاصلاح الديني والسياسي ، كالسنوسي

وابن عبد الوهاب وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا . وقد يستثنى محمد عبده في ذلك ، ولكن معلمه ، الافغاني ، انتمى الى الطبقة المذكورة . ولذلك اختلطت السياسة بالدين ولم يقم خط فاصل بين المبادىء القومية والمطالب الاسلامية. فدعا الكواكبي، رائد الحرية العربية ، الى خلافة عربية اسلامية اكثر مما دعا الى استقلال عربي قومي . ومزج زعماء الاحزاب المناضلة ضد التعسف العثماني بين الوحدتين الاسلامية والعربية . واصر الحسين في مناشيره التي برر بها ثورة ١٩١٦ على اعلانها ثورة ضد الفكر والانحراف الديني في اسطنبول، وليست ثورة عربية ضد حكم تركي اجنبي. ولم تنشب ثورة سياسية واحدة فيما بين الحربين العالميتين لم تكن الجوامع قاعدتها والمشايخ قادتها ، ترفرف عليها الرايات الدينية رفرفة الرايات القومية . وحتى على صعيد التمثيل النيابي والشعبي في مختلف المجالس القومية والتشريعية التي قامت قبل الحرب الاولى وفيما بين الحربين، منذ ان اسس اسماعيل مجلسه المشهور في اواخر الستينات الى ان اسس عبد الحميد مجلسه في السبعينات، الى قيام اول تمثيل نيابي شبه سليم بعد انقلاب ١٩٠٨ ، الى المؤتمرات القومية في دمشق وفلسطين في عهد فيصل ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، الى كافة المجالس النيابية بعد ذلك : في هذه كلها كان لممثلي الاشراف والاسياد مركز دائم رئيسي ، وكان لهم اثر كبير ، احتفظوا ، بواسطته ، بما كان لهم من قبل من نفوذ في الادارة الحكومية والحكم المحلي . ولهذا السبب تميزت الحركة القومية العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين بمفاهيمها المحافظة اليمينية ، بحيث حصرت جهدها في الحصول على الاستقلال السياسي دون ان تعنى بتطور المجتمع من الداخل تطويرا يحقق المساواة والعدالة الاجتماعيتين .

استفاد الاشراف والاسياد من هذا الجو المناسب لهم بقدر ما ركزوه وحموه . وكان الجو المذكور عاملا رئيسيا في تعيين الزعامة العربية السياسية وفي تقريرها . وعندما بحث المواطن العربي المخلص والواعي عن زعيم يتمثل بصلاح الدين ويحقق امنية جمال الدين ، وعندما جلس العربي المستسلم الكسول في مقهاه المفضل يتسلى بقصص صلاح الدين واقوال جمال الدين وهو ينازل جاره في لعب الورق، وعندما تفوه خطيب الجامع بالاسم وعندما دونه الصحفي او الكاتب ، وعندما هتفت به التظاهرات ، انما كان ذلك كله في اطار عقلية معينة : اطار الحق الشرعي لطبقة الاشراف والاسياد بهذه الزعامة وواجب الرعية بالتقيد به والولاء له .

لذلك كان معظم الذين رشحوا للزعامة السياسية على النطاق العربي العام الذي لا ينحصر في قطر معين ، وكان المرشحان الوحيدان بينهم اللذان حصلا على شيء من هذه الزعامة في وقت محدود، يتمتعان بالوجاهة الدينية — الاجتماعية في اجلى معانيها، وينتسبان الى الرسول انتسابا معروفا .

اختبار الزعامة الهاشمية

روى لورنس في « اعمدة الحكمة السبعة » قصة اختياره فيصلا ابن الحسين زعيماللعرب
تى الآمال التي زعم لورنس انه كان يشارك العرب بها : « شعرت ، منذ اللحظة الاولى،
هو الرجل الذي جئت الى الجزيرة العربية ابحث عنه : هو الزعيم الذي سيحقق للثورة
يمة امجادها الكاملة » .

الحقيقة ان فيصلا كان ، من قبل ان يتبناه الضابط الانكليزي ، مرشح بعض العاملين
الحقل السياسي في الاستانة ودمشق وبيروت ، لتولي قيادة الثورة العتيدة . كانت تلك
حزاب قد وجدت في فيصل ، في ظروف معينة ، امكانات للتعاون معه لم تجدهـا في
ره من امراء العرب آنذاك . وكانت قد اتصلت مع عدد من الامراء الآخرين ولم تصـل
هم الى اتفاق ، وخاصة ابن سعد الذي فشل اركان تلك الاحزاب في تأليبه ضدالاتراك.
شلت الاحزاب ايضا في تكتيل امراء الجنوب العربي . وخاب املها في الخديوي عباس
د ان خلعه الانكليز وهو في تركيا ومنعوه من العودة الى مصر .

ان عدة عوامل مهمة حملت ثائري العرب على الاتصال بهاشميي مكـة وعرض قيادة
ثورة على كبيرهم بعد ان كان احرار العرب يعارضون الحسين وابناءه ويأخذون عليهـم
عاونهم مع الاتراك واغاراتهم على القبائل العربية الثائرة على الدولة وصداقتهم المتينة مع
سلطان المخلوع عبد الحميد . منها ان الحجاز كان البلد العربي الوحيد المتحرر نسبيـا من
نفوذ العثماني المباشر والبعيد عن القواعد العسكرية. وكان مركزه الديني يؤهله لانيكون
اعدة اية ثورة اسلامية ضد الخلافة . وكان ذلـك المركز ، في الوقت نفسه ، يحميه من
جمات الاتراك ويعطيه حصانة لا تتمتع بها اية بقعة اخرى . وكان الهاشميون ، فوقهذا،
حفادا للرسول ، يحملون اسمه ودمه . وكانوا امراء اقدس بقعة في العـالم . اخذ احرار
عرب هذه الامور بعين الاعتبار عندما كانوا يبحثون عن قائد للثورة ، مثلما اخذهـا
لانكليز وهم يبحثون عن الشخص نفسه . وكان الانكليز على صلة مع البيت الهاشمي منذ
لقرن التاسع عشر ، وخاصة مع الحسين حينما كان لا يزال منفيا الى الاستـانة . لذلـك لم
يكن غريبا ان يضاف الى العوامل السابقة في اختيار الهاشميين عامل ضغط الانكليز على
احرار العرب . وكانت كلمتهم آنذاك مسموعة وتلقى آذانا صاغية في الاحزاب الثائرة
على الخصم المشترك . وكانت هناك ظروف معينة حتمت على احرار العرب العمل بسرعة
والقبول بالقيادة المقترحة بالرغم من نواقصها : كتأزم الحالة في البلاد العربية تحت الحكـم
التركي ، واعتقال كبير العسكريين الحزبيين العرب ، عزيز علي المصري، وصدور الحكم
باعدامه ، وهرب عدة ضباط من زملائه من تركيا ، وسقوط اسرار عربية كثيرة بايدي
السلطات، ثم اعتقال العشرات من السياسيين العرب واعدامهم فيدمشق وبيروت والقدس.

نحن نخطىء اذا كنا نتجاهل هذه الظروف والعوامل التي عملت لمصلحة اختيار الهاشميين قادة للثورة العربية . ونخطىء ايضا اذا كنا نتجاهل حقيقة تلك المبايعة وننسب اليها معاني ونتائج لم تكن موجودة قط . ان ما عرضه الوطنيون العرب على فيصل حينما مر بدمشق في طريقه الى اسطنبول ثم عند عودته ، في العام ١٩١٥ ، كان مرتبطا بشروط واضحة وكان عرضا محدودا بحدود قاطعة حاسمة. لقد قيدت مبايعة امراء العرب للحسين زعيما للثورة بخضوعه للادارة القومية وتمسكه بالمطالب السياسية التي نص عليها ميثاق اولئك الأحرار نصا واضحا لا لبس فيه . وهذا القيد هو ما دعا الحسين الى التأخر في الموافقة على المبايعة مدة سنة ونصف السنة تقريبا .

تجددت هذه المبايعة المشروطة بعد خمس سنوات تقريبا. وفرض المؤتمر السوري (الذي انعقد بدمشق في ١٩١٩ — ١٩٢٠ وكان يمثل غالبية السياسيين السوريين والعرب الاسيويين عموما) على فيصل ميثاقا وطنيا مكتوبا وحاسما حدد المؤتمرون فيه اهداف الحركة الوطنية والواجبات المطلوب من فيصل تحقيقها مقابل جلوسه على عرش البلاد السورية .

ولكن لا الحسين ولا ابنه كانا في مستوى هذه المطاليب القومية التي آمنت بها القواعد الشعبية التي رفعت كلا منهما الى منصب الزعامة. وسقط كلاهما عن عرشه قبل ان يثبتا للحركة الوطنية اهليتهما لثقتها. وخسر كلاهما تأييد الحركة الوطنية قبل ان يطرد الفرنسيون فيصلا من دمشق ١٩٢٠ وقبل ان يطرد الوهابيون الحسين من الحجاز ١٩٢٥ . فكان عدد من احرار العرب قد تخلوا عن الحسين وغادروا الحجاز والثورة بعد ان بدأت تشتعل ضد الاتراك. وما ان انتهت الحرب حتى كان معظم القوميين العرب قد سافروا لمصر او لدمشق ساخطين على الحسين . اما فيصل في دمشق فان المؤتمر السوري تخلى عنه في اواخر ملكه القصير في سوريا ، واعاد الحزبيون من اعضائه تشكيل احزابهم السابقة لمعارضة السياسة الفيصلية ، واعلن جمع منهم العصيان وهتفت الجماهير بسقوط فيصل وسارت تظاهرات كبيرة في شوارع دمشق وهاجمت قصره وقتلت بعض حرسه الخاص. حصل ذلك قبل ان تدخل القوات الفرنسية دمشق وتضطر فيصلا الى الهرب .

مع ظهور اسرار اتفاقية سايكس — بيكو ، ووعد بلفور ، ومع صدور قرارات مؤتمر الصلح وعصبة الامم بحرمان العرب من حقهم بالاستقلال وانتداب بريطانيا وفرنسا على بعض اقطارهم ، واتضاح دور « ابطال الثورة » في ذلك كله ، سقط هؤلاء عن ظهر فرس الخلاص. وعادت الجماهير العربية الى البحث عن زعيم للانقاذ من جديد: زعيم ينقذها من مشاكلها القديمة ومن المشاكل الجديدة التي اسهم الهاشميون في صنعها. فقد كانت خيبة امل العرب بفشل المحاولة جسيمة .

لعب الانكليز دورا كبيرا في تثبيت الزعامة الهاشمية بعد ان اسهموا في حمل الوطنيين

على القبول بعميد العائلة رمزا للثورة وقائدا . ووضعوا ثقلهم لصالح الهاشميين . فطردوا عزيز المصري ، عندما حاول انقاذ القيادة من التسلط الهاشمي ، وقتلوا ونفوا منافسي فيصل في دمشق وبغداد قبل جلوسه على العرش في كل منهما (مثل الاميرين الجزائريين في دمشق وطالب النقيب في البصرة) . وكل من يقرأ وصف لورنس لاحداث الثورة العربية يرى ، بوضوح ، نفوره من الوجاهات العربية التي كان يخشى ان تأخذ الزعامة من فيصل. لقد صمم الانكليز على تعيين فيصل ملكا عربيا ، مهما كان الثمن ، لذلك حينما سقط عرشه في سوريا صنعوا له عرشا آخر في العراق . كان صندوق الخشب الذي جعل منه منصة لفيصل في حفلة بيعته ملكا على العراق مكتوبا عليه باحرف واضحة من بعيد : « صنع في بريطانيا » ، كما روى احد شهود الحفلة الانكليز — اذ كان الصندوق ، في الواقع ، من صناديق علب الشاي البريطانية . وبعيدا عن الهزل ، كان الانكليز هم الذين صنعوا لفيصل شعاراته التي استهوى بها الجماهير في وقت من الاوقات : اقواله ورموزه واعلامه. كان اجنبيا الذي بايع صلاح الدين بزعامة العرب ، وكان اجنبيا الذي حاول ان يضع فيصلا مكانه .

غير ان عددا آخر من الظروف والعوامل لعب لمصلحة فيصل مرة ثانية بعد ان فشل ووالده في المحاولة الاولى . فنجد فيصلا ، نتيجة لتلك العوامل والظروف ، هدف آمال معظم الحركات الوطنية في الجانب الاسيوي من الوطن العربي في السنوات الاربع الاخيرة قبل وفاته .

لعب العراق في اختيار فيصل للزعامة ما لعبه الحجاز من قبل في اختيار ابيه . كان العراق منذ ١٩٣٢ البلد العربي الوحيد الذي نال معاهدة « استقلالية » ودخل عصبة الامم وجلس مندوبوه جنبا الى جنب مندوبي الدول ذات السيادة (بينما لم تنل مصر معاهدتها « الاستقلالية » الا ١٩٣٦ ولم تدخل العصبة الا ١٩٣٧) . انعقدت الآمال عليه ، قبل غيره ، ليصبح بروسيا العرب ، لانه اول بلد عربي يستقل فيأمل العرب في الاقطار الاخرى ، خاصة الاسيوية ، ان يسهم في استقلالهم . وزاد في الآمال وانعشها ان تدفق النفط في العشرينات من ارضه ، ورأى العرب فيه غدا مشرقا يحول النفط الاسود ذلهم الى ازدهار .

جعلت هذه الفرص من العراق مكة قومية يمم صوبها العاملون في الحقل الوطني معنويا وفعليا . لجأ اليه الهاربون من التنكيل والملاحقة في ثلاثة اقطار عربية على الاقل ، فلسطين وشرقي الاردن وسوريا . وتجمع العشرات منهم ليشكلوا تيارا وطنيا ينادي بتحرير الاقطار العربية ويدعو فيصلا الى الخروج من عزلته وقيادة حرب التحرير هذه لاقامة دولة عربية واحدة . واشتد ساعد هذا التكتل واتسع افق عمله لما انضم اليه بعض رواد الفكر

العربي في شمالي افريقيا (مصر وتونس بشكل خاص) ممن ذهبوا الى العراق كلاجئين سياسيين او كمعلمين . واصبحت بغداد مهد اول جامعة عربية شعبية بعد انحسار الحكم التركي—اي ما كان الحجاز عليه خلال الثورة، وما كانت عمان عليه لاشهر قليلة بعد مجيء (الامير) عبد الله اليها . وظلت بغداد كذلك عدة سنوات ، الى ان فشلت ثورة ١٩٤١. واسهمت ظروف اخرى في تمكين العراق من مركز الصدارة . فربطت انابيب النفط التي مدت من الموصل الى البحر المتوسط، عبر شرقي الاردن وفلسطين، لتحمل النفط من منابعه الى ميناء حيفا ، ربطت العراق مع جاراته العربيات ربطا اقتصاديا ونقليا حيويا محكما، ولم تعد العاطفة العربية هي الرابط الوحيد .

فرضت هذه الاوضاع على العاملين في الحقل الوطني في شرقي الاردن وفلسطين وسوريا ان ينظروا الى العراق كالبلد المخلّص . واخذت بقايا حزب الاستقلال في هذه الاقطار الثلاثة تتجمع وتتكتل من جديد في اشكال ، وتحت اسماء ، مختلفة ، تكافح الحكام الاجانب واعوانهم من المحليين ، بيد ، وتمد اليد الاخرى الى العراق تطلب العون وتعلن الولاء .

بلغ هذا الولاء للعراق ولسيد العراق اشده في مطلع الثلاثينات ، وقد رمز اليه المؤتمر الاسلامي الكبير في القدس في اواخر ١٩٣١ بمبايعة فيصل زعيما للحركة الوطنية—وكان المؤتمر يضم العاملين في السياسة والوطنية في عدد كبير من الدول العربية والاسلامية. ففي سوريا اصبح مطلب الوحدة مع العراق ، تحت ظل العرش الهاشمي ، من صميم الحركة الوطنية حتى ان بعض السياسيين الفرنسيين ايدوا الاتجاه وحاولوا تبنيه املا في مد النفوذ الفرنسي، عبر هذا الاتحاد ، الى العراق ، وضرب المصالح البريطانية في ما بين النهرين . وكان حزب فيصل في سوريا هو حزب الكتلة الوطنية ، اكبر المؤسسات السياسية في البلاد في عهد الانتداب الفرنسي ، وقد تأسس في العشرينات من بقايا حزب الاستقلال والمؤتمر السوري ورجالات ثورة ١٩١٦ . ولم تنقلب الكتلة على السياسة الهاشمية الا في الاربعينات ، بعد ان تبدلت الولاءات .

وفي شرقي الاردن اصبح فيصل شفيع الحركة الوطنية التي التأمت في خمسة مؤتمرات قومية ما بين ١٩٢٨ و ١٩٣٣ ، بقدر ما كان اخوه عبد الله حامي الاحزاب الحكومية الموالية له وللانتداب التي بقيت خارج المؤتمرات المذكورة ولم تكن تتمتع برضى شعبي ، لا في داخل الامارة ولا خارجها. واشتد الخلاف بين التكتلين الحزبيين اشتداده بين الاخوين الهاشميين، ولم يكن عبد الله يخفي معارضته لاخيه وتهجمه عليه. ولكنه لم يكن يحصل على السلاح الذي حصل اخوه عليه بايجاد قاعدة فيصلية في شرقي الاردن بينما لم يجد عبد الله لنفسه قاعدة لها شأنها في العراق ولا في اي قطر آخر يؤيد وطنيوه فيصلا .

اما في فلسطين فقد بلغ الامل بالعراق اقصاه لاشتداد الخطر الصهيوني على البلاد باستيلاء النازيين على الحكم في المانيا ، مما ادى الى ازدياد خطر الهجرة الصهيونية ، ولسيطرة الحاج امين على زعامة الحركة الوطنية بعد ان نجح في عقد المؤتمر الاسلامي ، مما انزل بالاستقلاليين الضعف ولم يعد لهم من امل الا بمساعدة او بحماية من خارج فلسطين من رجل له ما للحاج امين من قوة ونفوذ . وقد وصل التعلق بالعراق وبالملك فيصل عند بقايا الاستقلاليين (ممن اسسوا فيما بعد حزب الاستقلال العربي) ان اختاروا « الفيصلية » لباسا للرأس فاصبحت شعارا وطنيا وحزبيا في آن واحد . واصبح الاستقلاليون قوة ثالثة على الصعيد الحزبي الفلسطيني ، يقفون موقفا وسطا بين جماعتي المفتي والامير عبد الله .

حتى في لبنان حاول بقايا الاستقلاليين اثبات وجودهم ، فعمل نفر منهم على تأسيس عصبة العمل القومي في مطلع العام ١٩٣٣ . وقد تكونت العصبة من الرعيل القديم من المجاهدين السوريين واللبنانيين . واقامت صلات ودية قوية مع فيصل بالذات ومع العراق بوجه عام . ولم يفتر هذا الود حتى بعد موت فيصل وغازي وبعد تبدل السياسة العراقية ، العربية والعالمية ، تبدلا اساسيا .

نفهم من هذا الاستعراض ان الظروف جعلت من العراق بروسيا الغد في مخيلات الوطنيين ، وجعلت من ملك العراق آنذاك بسمارك الغد ، بالضرورة ، اي بحكم منصبه . مما يعني ان الزعامة في الثلاثينات لم تأت فيصلا مباشرة ولا لفضل فيه بقدر ما جاءته عن طريق العراق وبفضل العرش الذي جلس عليه . لهذا نجد ذكرا متواصلا له ، في نتاج الثلاثينات . كبسمارك العرب ، ولكننا قلما نجد من رأى فيه ، بالفعل ، صلاح الدين ، منازل الاستعمار . فبسبب ضخامة الوطن العربي ووقوع شمالي افريقيا كله تحت الحكم الاجنبي وانعزاله ووادي النيل عن القضايا العربية الاسيوية ، آمن القوميون في آسيا العربية ان العمل القومي يجب ان يبدأ اولا في ما عرف بالهلال الخصيب . من هنا اخذت شخصية بسمارك العربي ، الذي سينطلق من قاعدته العراقية ليوحد هذا الجانب من الوطن ، تتغلب مؤقتا على شخصية « صلاح الدين » الذي سيوسع نطاق عمله القومي ويتنقل بين آسيا وافريقيا العربيتين وهو يلاحق الاستعمار . وكما قام هتلر بالوحدة الالمانية بعد ان بدأ بسمارك بالمهمة بستين سنة ، سيقوم « صلاح الدين » عربي جديد ، كما آمن القوميون ، يكمل المهمة المبدئية التي لم ير القوميون غير فيصل مؤهلا للقيام بها . اي ان الحاجة لبروسيا جعلت هناك حاجة لبسمارك ، والحاجة لصلاح الدين جعلت هناك حاجة لمهد له . فلما فشل القوميون في اقناع فيصل ان يقوم بالدور البطولي المنشود ، ليموت بعد وقت قصير ، وضعوا آمالهم على خليفته في حكم العراق ، ابنه غازي . ولما استولى بكر صدقي ، ثم رشيد عالي الكيلاني ، على السلطة ، ١٩٣٦ و ١٩٤١ ، انعقدت آمال القوميين على كل منهما . وبلغ

الترحيب بالعهدين حدا كبيرا في كل بلد عربي . حتى مصر ، وكانت لا تزال في عزلتها العربية ، التهبت حماسا لثانيهما ودفع بعض ساستها حريتهم ثمن ذلك الحماس . فقط حينما زال حلم بروسيا وبسمارك في الاربعينات مع زوال مؤثرات المانية كثيرة، وصحا القوميون من احلام اليقظة ، لم يعد حاكم العراق هو ، بالطبيعة والضرورة وحكم المنصب، امل العرب الوحيد لمجرد انه حاكم العراق . فتحولت قاعدة العمل الوطني الى حيث يوجد مناخ مناسب للعمل الوطني ، سواء في هذا القطر او ذاك .

اختبار الزعامة الحسينية

لم يكن تحرر العرب من الافكار التقليدية كاملا. بل ظل العربي يفكر من ضمن الاطار القديم نفسه وهو يبحث عن بطل الانقاذ . وقد افاد الحاج امين الحسيني من بقاء العقلية التقليدية الى الاربعينات افادة الحسين وفيصل منها في الثلث الاول من القرن .

ان وراء عشرات الاختلافات بين الحاج امين والملك فيصل ، في الطباع والشخصية والعقيدة والظروف، قاسما مشتركا ربط بينهما واتاح للواحد منهما ما اتاحه للآخر من منصب وزعامة : الوجاهة الدينية—الاجتماعية العائلية العريقة الراسخة في الذهنية العربية الى وقت قريب ، من جهة ، ورضى صانع التيجان وصاحب الحول والطول ، من الجهة الاخرى . اما من حيث الانتساب الى الرسول فان تكن الاسرة الحسينية اقل عراقة واضيق نفوذا من الاسرة الهاشمية التي وصل ثمانية من افرادها الى الملك في اقل من خمسين سنة ، فانها مدت جذورها في الكيان السياسي والاجتماعي لفلسطين مدة ثلث قرن تقريبا قبل ان يعاد الهاشميون من منفاهم في اسطنبول ليصبحوا سادة مكة . لقد نجحوا في ذلك بفضل انتسابهم الى آل البيت — او، بالاحرى ، بفضل تغلبهم على اسر فلسطينية اخرى كانت تنتسب الى آل البيت ايضا. كانت هذه الوجاهة الدينية جواز النجاح الرئيسي للحسينيين بوجه عام ، تمكنوا به من تسلق الوظائف الادارية والمناصب الدينية والقضائية ومقاعد المجالس « النيابية » في عهد السلطان عبد الحميد ، بعد صراع عنيف مع سائر الوجاهات الفلسطينية . واستمر الصراع الى ما بعد طرد الاتراك، وازداد اشتعالا في عهد الانتداب.

كانت اليد البريطانية ، المعتادة على حفظ ميزان القوى العائلية حينا وعلى هزه وقلبه لمصلحة جانب دون آخر حينا، تحرص ان يؤول وضع القوى في الميزان لمصلحة الانتداب. ولسبب او لآخر وجد رونلد ستورز (زميل لورنس في الحرب ، ورفيقه في رحلته الاستكشافية الشهيرة الى الحجاز التي انتهت باختيار فيصل زعيما للثورة ، ورفيقه في مؤتمرات القدس والقاهرة في العامين ١٩٢٠—١٩٢١ التي انتهت بتعيين عبد الله اميرا على شرقي الاردن وفيصل ملكا على العراق)في نفسه رغبة في صنع التيجان كما كان صديقه

لورنس يفعل . صنع هذه المرة عمامة، وضعها على رأس الشاب الوجيه امين الحسيني: مفتيا على فلسطين . ومن منصب الافتاء انطلق الحاج امين الى الزعامة الشاملة في فلسطين : الى رئاسة اللجان والهيئات العربية التنفيذية والعليا ، والى زعامة الحزب العربي الفلسطيني ، ليصبح، في مدى قصير، القائد الذي يدين له عرب فلسطين بالولاء ، في معركتهم الحياتية مع الانتداب والصهيونية، والزعيم الروحي لملايين المسلمين بصفته قيما على الاماكن المقدسة في فلسطين .

كان التركيب السياسي للحركة النضالية يسلم مقاليدها لتكتل من السياسيين المحترفين التقليديين ، يتوزعون في احزاب ومؤسسات تختلف في الاسماء والاعوان ولكنها تلتقي كلها في تزعيم اصحاب الوجاهات والثروات ، ممن كانوا يمزجون بين النضال الوطني والكسب الفردي. ومع هذا سلم الشعب مصيره السياسي لتلك الطبقة، لان وعيه السياسي لم يكن آنذاك قد تبلور تبلورا يكفيه لان يعرف كيف يفرض نفسه على السياسيين المحترفين ، ولان معظم العاملين في الحركة السياسية كانوا من الطبقة ذاتها ، بحيث لم يكن لديه امل في العثور على عقائديين غير محترفين ومناضلين غير متكسبين ، ولان طبيعة النضال واحتدام المعركة مع الصهيونية والاستعمار وعملائها لم تكن لتسمح للشعب بان يثور على النظام السياسي السائد وان يخرق الذهنية التقليدية الموجودة منذ اجيال .

اكتفى الشعب بان يقبل بالزعامة التي تفرض نفسها على اخصامها ، التي تخرج من حلبة الصراع الداخلي ، الحزبي والعائلي ، فائزة بمقاليد السلطة المعنوية . ورأى ان يبايع الزعيم الذي وصل الى اعلى السلم ، وان لا يصرف جهده ووقته في السؤال عن كيفية وصوله الى اعلى السلم ، ما دام العدو يتربص به ، وما دام الشعب اعجز من ان يرفع مكان الزعيم شخصا آخر من صفوفه . كان الشعب بحاجة الى رمز ، رمز للنضال، مهما كانت صلاحيته. من هنا لم يجد الحاج امين معارضة اصيلة في الجماهير بالرغم من ظروف تزعيمه . ولم تجئه المعارضة الا من الاوساط المنحرفة ، التي خرجت على الميثاق الوطني ولم تخرج على المفتي فقط . ان خروج هذه الاوساط عليه زاد في رصيده الشعبي ودعم زعامته كثيرا في الجماهير التي آمنت بالميثاق الوطني . فلان معظم الخصوم كانوا من المتهمين ببيع الاراضي لليهود ، او السمسرة للبيع ، او الخارجين على المقاطعة السياسية والاقتصادية، او المتصلين بالعدو والمنتفعين منه ، سار الشعب وراء الحاج امين وهو يتعقبهم وينكل بهم ، مع انه لم يكن كل الضحايا من المنحرفين وانما كان بعضهم اخصاما سياسيين له شخصيا او منافسين عائليين ، بل ان بعضهم كانوا مجرد منتقدين لخططه واحكامه .

احتاج عرب فلسطين الى زعيم يقود النضال ويحمي البلد ويدافع عن القضية ويقف امام الطامعين بالمرصاد . فكان الحاج امين هذا الرجل ، اهّله منصبه الديني ان يسيطر على

عواطف السكان مثلما اهّله ان يسيطر على ميزانية ضخمة يستطيع بواسطتها ان يمول الحركة الوطنية والمؤسسات السياسية التي تدين له بالولاء . واهّله منصب الافتاء ، في بلد تبدأ حركاته السياسية عادة في الجوامع ، ان يتسلم السلاح الذي يطلق به الجماهير نحو الهدف الذي يريد . واهّلته سيطرته على عائلة الحسيني ان يكون الممثل الرسمي لاكبر جماعة في البلاد ، من قبل تأسيس الاحزاب السياسية . اما بعد تشكيل الاحزاب ، في النصف الاول من الثلاثينات ، فان زعامته للحزب العربي الفلسطيني (وقد فاق عدد اعضائه اعضاء الاحزاب المنافسة الخمسة مجتمعة) جعلته الممثل الرسمي لغالبية الشعب الفلسطيني ، ولم يعد ناطقا باسم عائلة فحسب . وزاد في مكانته ان كان هو المسيطر على المؤتمرات القومية التي عقدها عرب فلسطين منذ نهاية الحرب الاولى الى اواخر العشرينات، وعلى اللجان والهيئات العليا التي تشكلت من ممثلي الاحزاب في الثلاثينات والاربعينات ، وعلى مؤتمر غزة في ١٩٤٨ الذي انبثقت عنه حكومة عموم فلسطين .

مؤتمر القدس الاسلامي في ١٩٣١ احد المؤسسات التي بنت للمفتي زعامته الفلسطينية . وهو ، في الوقت نفسه ، الجسر الذي خرج المفتي بواسطته من النطاق المحلي ليصبح زعيما عربيا اسلاميا . فقد كان للمؤتمر صبغة عالمية غير قطرية ، وتحول الى مؤسسة دائمة تعالج المشاكل العربية والاسلامية بشكل عام (وهو لا يزال ينعقد الى اليوم ، برئاسة المفتي) . وكان تدخله في بعض المسائل العربية غير الفلسطينية سبيلا الى تعريف العرب والمسلمين في اربع زوايا الارض على الحاج امين الحسيني. ثم جاءت احداث الثلاثينات السياسية الشهيرة في فلسطين . فاستمد الزعيم الفلسطيني منها رأسمال من الشعبية العربية الشاملة التي كانت تزداد كلما ازدادت ملاحقاته وكلما هرب ، متنكرا في معظم الاحيان ، بين بلد وآخر . حتى اصبح ، في آخر الثلاثينات واوائل الاربعينات ، ما كان فيصل عليه قبل عشر سنوات . وكأن الرأي العربي العام اراد ان يظهر عطفه على فلسطين وقضيتها بتكريم زعيم فلسطين . وكان المفتي نفسه يحاول دائما ان يجعل من نفسه رمزا للقضية . فاستفاد من هذه الناحية بان رأى العرب فيه صورة عن الوطن الشهيد ، وكرموه واحبوه كما لو كان كذلك بالفعل .

هذا فرق اساسي بين الزعامتين الكبيرتين الهاشمية والحسينية. فمع ان كلا الزعيمين حصل على الزعامة خارج بلده بفضل الظروف التي كان بلده يمر بها ، اراد الوطنيون فيصلا زعيما ليحررهم لانه كان ملك بلده شبه المستقل ؛ اما امين ، فلانه كان زعيم بلد بائس يبحث عن عون ، اراده الوطنيون زعيما ليستقطب عواطف العرب والمسلمين عامة ويجمع لفلسطين ، وللعرب عامة ، المساعدات المادية والمعنوية ، اذ هم رأوه رمزا للقضية وزعيما بايعته اغلبية الفلسطينيين بالولاء ، من جهة ، وادركوا ان انقاذ فلسطين سيخدم القضية العربية بشكل

عام بحيث لا بد ان يكون قائد حركة انقاذها هو القائد المؤهل للجبهة العربية الشاملة .

بين الرجلين فروق اخرى . كان مؤتمر القدس ١٩٣١ قد طالب فيصلا بالخروج عن عزلته والانطلاق القومي في الميدان العربي . ولكن فيصلا قابل تلك الدعوة بحذر، خوفا من ان تؤثر في رضى الانكليز عليه وتحرج موقفه امامهم . وظل يتردد في قبول الدعوة التي اسهم الاستقلاليون القدامى بتوجيهها له، الى ان مات فجأة في سويسرا صيف ١٩٣٣. اما الحاج امين فما كان يتردد في تلبية نداء من هذا النوع . فلم يتأخر عن اي عمل عربي ، لا فلسطيني ، ما دام العمل يفيد زعامته العربية ويدعم مركزه . كان الحاج امين اكثر نشاطا وحيوية واوسع طموحا ، ولعله كان اشجع واجرأ ايضا . كان فيصل يخشى المسؤولية : رفض ان يقبل عرش العراق الا بعد ان حصل الانكليز له على تواقيع الزعماء السياسيين فيه (طبعا بعد نفي المعارضين !) وعلى موافقة والده . وترك امر الدعوة له في سوريا وفلسطين وشرقي الاردن الى سكان البلاد واتباعه خاصة ، ولم يكن يساعدهم بالقدر الذي كانوا يرجون . كان يخشى ان يغامر وراء عرش كبير فيخسر عرشه الصغير في بغداد . كان فيصل رجلا مقتصدا حذرا علمته التجارب ان في الفقر كبوات . كان طرده من سوريا وطرد ابيه من الحجاز كابوسا اقلق ليله ونهاره وجعله يتمسك بعرش العراق تمسكا لا يترك مجالا للطموح . بل انه مات ضحية هذا الكابوس . قضت عليه مخاوفه من ان تزعزع ثورة الاشوريين (التي نشبت في صيف ١٩٣٣ في اثناء غيابه باوربا) مركزه ، لما كان لها من رد فعل سيء في اوربا والعراق آنذاك حديث العهد بالاستقلال وبعضوية عصبة الامم ، فعاد الى العراق مسرعا ليهدىء الحالة . ولما وجد تصلبا من قبل الرأي العام وضباط الجيش وابنه ولي عهده ، فضل ان يبتعد عن المسرح السياسي وخرج من بلده كسير القلب ليموت بعد ايام .

اما الحاج امين فلم يكن يهرب من المشاكل والثورات . بل كان هو الذي يسعى اليها ويثيرها بين حين وآخر . كانت الحركة ، سواء في قيادة عصيان او خوض ثورة او مجرد تنقل من مكان الى آخر وهرب من ملاحقة وتخفٍ ، سبيلا له الى الشهرة ، يتخلص بواسطتها من ملل الجماهير او تذمرها او حتى من مجرد مراقبتها ، ويدخل بها الى قلوب الناس الذين تعجبهم البطولات الجسدية ويلتذون لسماع اخبار المغامرات الخارقة والمخاطرات التي يعيي الزعيم الوطني بها حيل الانكليز والصهيونيين معا . عاش فيصل بعيدا عن الاضواء حتى وهو ملك . وكان يجري مباحثاته ، في العراق وخارجه ، بالسر . وكان منطويا على نفسه اذا ما قيس بمن ملك من افراد اسرته . اما الحاج امين فقد عاش يهوى الاضواء ، ويقف تحتها سواء دعي الى ذلك ام لم يدع ، ويركض نحوها ان ادبرت الى صوب آخر .

تطور مفهوم الزعامة

الانتساب الى الوجاهات، ومساعدة الانكليز وتدخلهم، واستغلال الاحداث والثورات، واستثمار المصالح العائلية والولاءات الضيقة والاحزاب والانتخابات المزورة، هذه كلها كانت مسؤولة عن تكريم عدد من السياسيين العرب وتزعيمهم، قطريا وعربيا، في قرن من الزمان. ولكنها كانت، في الوقت نفسه، مسؤولة ايضا عن عدم رسوخ اي من تلك الزعامات، وعدم امتداد الزعامات الاقليمية عبر الحدود السياسية. ذلك ان العوامل المذكورة ظرفية وآنية ومفتعلة الى حد بعيد، حتى لم يكن من المعقول ان تعيش الى الابد وان يظل التاريخ العربي خاضعا لها الى ما لا نهاية. لو ان العرب استمروا على الوضع الذي كانوا عليه قبلا، وابقوا على الذهنية والتركيب والمفاهيم والمؤسسات السابقة، لسهل على تلك العوامل ان تتابع لعب دورها الرئيسي في فرض زعيم مكان آخر. ولكن النمو العربي والاحداث التي فرضته او شجعت عليه من الداخل ومن الخارج، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا ونفسيا بالدرجة الاولى، في السنوات العشر التي توسطت القرن (ما بين نهاية الحرب الثانية وقيام ازمة السويس) ما كان ليسمح ببقاء هذه الاوضاع، لانها ليست حلا منطقيا، ولا تقدم حلا منطقيا، للمطاليب الشعبية والمشاكل الوطنية.

الحديث في التطورات المتعددة التي قلبت مفاهيم الزعامة السياسية، مع ما قلبته من مفاهيم اخرى، في اواسط القرن الحالي، اطول واعقد من عجالة كهذه. نكتفي هنا بتلخيص ما حصل في ست نقاط عامة:

اولا، اشتد الوعي السياسي ونما بفضل عدد من العوامل ابرزها عاملان متعاكسان: حصول بعض الاقطار العربية على استقلال كامل او جزئي، ودخول معظمها هيئة الامم، وقيام دول عربية ذات اعتبار دولي محترم، وحصول منطقة الشرق العربي الاوسط على مركز خاص مهم جدا في عالم يتجاذب قواه تكتلان رئيسيان متعاديان، من جهة؛ ومن جهة اخرى، تطور العلاقات السياسية مع خصمي العرب الرئيسيين، الصهيونية والاستعمار، تطورا خطيرا انتهى باقتطاع فلسطين من قلب الوطن.

ثانيا، اشتد ساعد الطبقة المتوسطة والجماهير العاملة، فلم تعد ترضى باحتكار الوجاهات التقليدية للحكم والثروة والسلطة، وارتفع صراخها تظلما من الاحتكارات والاستغلال وتجبر الحلف المهيمن على البلاد المتكون من الرجعية والاستعمار. واستطاع ممثلو الطبقة والجماهير المذكورتين ان ينفذوا الى معاقل الحكم والرأي.

ثالثا، اتضح للرأي العام فشل الاحزاب والمجالس النيابية وكافة النظم التي حاولت تقليد الديمقراطية الغربية بالشكل دون الروح، بحيث مسخت مبادؤها المثالية وشوهت صورتها بممارسات تخالف اصولها الجوهرية. ولم يعد للرأي العام من امل بازالة ما عجزت

البرلمانات والاحزاب عن ازالته الا بالقوات الوطنية المسلحة .

رابعا ، ازدادت ثروات العرب القومية بشكل عام . فظهر النفط ، مثلا ، في اكثر من قطر ، واصبح مورده عاملا اساسيا في مداخيل عدة اقطار . ولكن التوزيع غير العادل للمداخيل لم يتح لاغلبية الشعب ان تنتفع من هذا الغنى المفاجىء انتفاعا مباشرا . وعلى العكس ، نما الشعور الشعبي بالحرمان مع ازدياد الثروات القومية ، ونمت النقمة على مسببي الحرمان ، وازداد الايمان بالعدالة الاجتماعية . ولم تعد المطاليب السياسية تنفصل عن المطاليب الاجتماعية ، ولم يعد العمل السياسي يتجاهل العمل من اجل رفاهية الشعب المادية .

خامسا ، ارتفعت نسبة المتعلمين ارتفاعا ملحوظا . ولم تعد الثقافة امتيازا خاصا كما كانت قبلا . خرق الحصار الذي ضربته الظروف المادية والامتيازات الطبقية والاجراءات الحكومية على المدارس جمعٌ لابأس به من المتعطشين للعلم من ابناء العمال والمهنيين . وازداد انتشار الكتب والصحف ، وازداد عدد المستمعين الى الاذاعات والمحاضرات .

سادسا ، خرج العالم من الحرب الكونية الاخيرة بروابط اقوى مما دخلها ، على صعيد سبل الانتقال والاتصال على الاقل . وقربت المسافات كثيرا ، وازداد الاحتكاك ، وسقطت حواجز طبيعية ومصطنعة كانت لا تفصل بين الامم فحسب بل كانت ايضا تعيق تأثر الشعب الواحد بحضارات شعب آخر بما فيها من افكار واتجاهات وعلوم وفنون . فاحتك العرب ، في العشرين سنة الاخيرة ، مع العالم اكثر مما احتكوا معه في خمسين سنة من قبل .

لقد سدّت هذه التطورات المجاري التي كانت عوامل الزعامة تسلكها في السابق : فخرج الانكليز ، بفضل النضال والوعي الشعبيين ، من معظم الدول التي انتدبوا انفسهم عليها او احتلوها او اقاموا معها معاهدات صداقتهم المشبوهة . وخف نشاطهم المتستر بثوب شفاف في اقطار اخرى كانوا هم اصحاب القول والفعل في امورها المختلفة ، السياسية وغير السياسية .

وحالت التطورات دون استمرار استغلال السياسيين ، حكاما ومعارضين ، للوجاهات والروابط العائلية ، وللثورات والانتفاضات الشعبية ، وللاحزاب والانظمة الديمقراطية المزيفة . لم تجد التطورات صعوبة في فضح الاحزاب والاساليب الحزبية لان الاحزاب كانت قد فضحت نفسها بتناقضاتها ومساوماتها ، حتى اصبحت الحزبية ، وهي السلوك الطبيعي في الديمقراطية السليمة ، في اذهان الناس اسلوبا رخيصا وملتويا للكسب غير المشروع ، معنويا وماديا ، على حساب المجموع . وقد نتج عن هذا الانحدار في المستوى

الحزبي وفي تقبل الناس للحزبية ان لم يعد للاحزاب من يشفع لها امام نقمة الحكومات العربية الحاضرة التي يمنع ثلثاها التفاعل الحزبي منعا باتا .

ولم تعد البطولات العسكرية سبيلا سهلا الى تكوين الشعبية ، خاصة بعد ان فجع الرأي العام ببعض المحاولات التي كان قد علق عليها آمالا عريضة ليكتشف ، بعد اشهر قليلة فقط ، انخداعه بالمظاهر البطولية التي كثيرا ما تكون جوفاء من الداخل . ولم يعد عرض العضلات واستنفار القوات واستعراضها والتبجح بالقوة العسكرية والمغامرة بها والاطاحة ، بواسطتها ، بالعهود غير المرضي عنها عملا كافيا بحدّ ذاته لنوال رضى الشعب. ولم يعد الناس يكتفون بالهدم بل اخذوا يطلبون تعميرا بعد الهدم، ويطالبون الانقلابيين باثبات اهليتهم للتعمير مثل قدرتهم على الهدم . لقد بدأ الوعي الشعبي يفرق ، اخيرا، بين الانقلاب والثورة .

اما استثمار الامتيازات الطبقية والارتباطات العائلية والمراتب الاجتماعية فقد كان اكثر حصن من الحصون التقليدية تمنعا امام موجة التطور الفكري والسياسي المعاصر . كانت هذه الامتيازات والارتباطات رأس التنين الذي لم تزهق منه الحياة وان قطعت عنه اطرافه الكثيرة . ذلك ان قوة الوجاهة التقليدية كانت تعتمد في الدرجة الاولى على ولاء الشعب التقليدي ، على بساطة الشعب وتعوده على الخضوع بسبب الجهل الذي كان منتشرا في صفوف السكان . وكانت تستغل الجهل المستشري مثلما تستغل سوء تفسير التراث الديني والفكري والاجتماعي : ذلك التراث الذي غمرته قرون الانحلال باكوام من الاضاليل ، فانحجبت الحقيقة فيه عن اعين الناس وتراءت لهم مكانها اوهام واضاليل عممها متنفذو العهود العثمانية المحليون والسلطات الحاكمة لانهم كانوا ينتفعون منها .

الى وقت متأخر وغالب العرب يتوهمون استحالة تسليم قيادة الامة الى زعيم لم يرث الوجاهة او الزعامة عن اب او جد . والى ما بعد الحرب العالمية الاخيرة والعدد الاكبر من ملوك العرب وامرائهم ومشايخهم ، في ممالكهم وامارتهم المستقلة والمحتلة، ينتسبون الى آل الرسول. حتى فاروق نفسه ، الالباني الاوربي الاصل ، حاول ان ينضم الى زمرة الملوك — الاسياد ، في الاربعينات ، فزعم النسب الشريف لنفسه ، وكأنه تضايق من ان يكون العاهل الوحيد من بين سبعة ملوك وامير الذي لا ينتمي الى البيت النبوي او لا يتولى امارة المؤمنين في بلده . وحتى اولئك الزعماء ، من انقلابيين وحزبيين ، الذين لمعوا في سنوات الثلاثينات والاربعينات، هم انفسهم كانوا يدعون النسب ذاته اوكانوا يستعيضون عنه بتعاون وثيق مع الوجاهات والاحتكارات والارتباطات العائلية . ولم يكن من الصدف ان يتزعم معظم اتحادات العمال والاحزاب « الاشتراكية » في فترة الاربعينات ، نبلاء ووجهاء زرق الدماء ورأسماليون يسيطرون على ثروات البلاد . الا انه لا شك ان

انتشار الافكار التقدمية والمبادىء الاشتراكية ونمو نفوذ الطبقة الوسطى وتنظيم العمال والمهنيين وتوسع مطامحهم اضعف تلك الاحتكارات وهدد الوجاهات والارتباطات . وان لم تكن التطورات التي حصلت في منتصف القرن قد قضت على هذه الاخطار فانها ، على الاقل ، خاضت معها حربا عوانا . وقد مهدت هذه الحرب الطريق امام جمال عبد الناصر ليصبح اول زعيم عربي لا ينتمي الى وجاهة زرقاء الدم خضراء العمة ، ولا يرتبط بمصلحة طبقية او عائلية او اقليمية .

اختبار الزعامة الناصرية

منذ ان وضع الخليل بن احمد اول معاجم اللغة العربية، في القرن الثامن، وتعريف الزعامة في قواميس اللغة يربطها ، وما فيها من رئاسة وشرف ، بالكفالة والضمانة ، اي بالخدمة والمسؤولية. لم تكن الزعامة حسب التعريفات اللغوية جاها مطلقا في اي يوم من الايام ، بل كانت مشروطة بالعمل دائما . والزعامة الناصرية، مفهوما وممارسة، تقويم لهذا المنصب عن انحرافه وردّ المعنى الاصلي الاصيل اليه . فالخدمة ، الشرط الاساسي للزعامة ، هي الصفة الرئيسية للعهد الناصري : حتى اعداء العهد، ومن خلال ما يسجلون عليه من اخطاء وتقصيرات ، يعترفون بان هذه الزعامة تتبنى خدمة الشعب وتلتزم حقوقه ، وانها اول زعامة تفعل ذلك على نطاق واسع، لتجعل من خدمة الشعب مبرر وجودها واستمرارها.

استطاع عبد الناصر ، بتنفيذه عددا من الاجراءات ، ان يمثل اغلبية الشعب ، وان يدافع عن الاماني القومية ، وان يتحول الى رمز للحركة الوطنية المعاصرة فيبايَع، عبر هذه الحركة، بزعامة لم يحصل عليها من قبل اي زعيم آخر ، لا من حيث اتساع افقها وشمولها ولا من حيث نوعيتها . تختلف الزعامة الناصرية عن الزعامات الماضية من حيث المادة التي تتركب منها . انها تنبثق عن الشعب ، عن مجموع طبقاته وفئاته واقطاره. وهي تنبثق عن اماني الشعب ، عن مطاليبه التي نادى بها منذ قرن على الاقل ، وعن شعاراته التي رفعها منذ ان عرف العمل السياسي الحديث ، وعن احلامه التي اخذت تتراءى له منذ ان اقلقت باله كوابيس التخلف والاستعمار والتفرقة والفاقة ، وعن تراثه وكيانه القومي ومصالحه العامة .

تتولى الاجراءات الناصرية الدفاع منه وعن زعامته في وجه الخصوم المحليين والاجانب. أعماله هي رأس المال الذي يستعمله في مضاربات السياسة . لكن حساب الزعامة ليس مجرد قائمة بالواردات والصادرات والارباح والخسائر. والجماهير ، صاحبة القرار الاخير في مصير الزعامة ، ليست دماغا الكترونيا يحكم على الاعمال حكما تلقائيا لا عاطفة فيه ولا يخضع لمؤثرات شخصية . لا تقوم الزعامة على الاعمال فحسب ، لان الاعمال تشوّه : فلا يستعصي على من يريد تحطيم سياسي ما ان يسيء تفسير افعاله ، حتى الجيد منها ، وان يثير

حوله الشكوك والشائعات بالمكائد والاحابيل والدسائس . لذلك لا يسهل على سياسي ان يصل الى كرسي المسؤولية ويؤدي الرسالة التي ينتدب نفسه لها ما لم يكن له رصيد معين يستفيد منه ويتكل عليه قبل القيام بخدماته وخلاله .

مطلوب من الزعيم ، في سائر الزعامات وسائر الشعوب، حتى الذي بلغ اعلى درجات الرقي ، ان تتوافر فيه صفات خاصة تؤثر عادة في الجماهير ، الى جانب الخدمات التي يرى الشعب في قيام الزعيم بها تحقيقا لذاته ومصالحه . تقوم هذه الصفات بالتمهيد لزعامته وبدعمها امام الخصوم. وهي تكمل خدماته ان كان الزعيم صاحب خدمات شعبية، وتستر على تقاعسه عن الخدمة ان لم يكن صاحب خدمات .

من هذه الصفات الخطابة والطلاقة في الحديث مع الجماهير (على الزعيم ان يكون ذا اسلوب يستهوي المستمعين والقراء ويسهل عليه التفاهم معهم)، والصحة الجيدة (ويستحسن ان تبدو على الزعيم سمات الرجولة الحقة) ، والخلق الرفيع المتين (اخلاص وصدق ونزاهة وامانة ووداعة) ، وحس المشاركة مع الشعب وجدانيا وعاطفيا. وبالطبع فان ضرورة وجود هذه الصفات تعني ضرورة سلامة الزعيم من العيوب التي تناقضها، كالعاهات الجسدية والفضائح والتعالي عن الشعب .

لا بد ان عبد الناصر استفاد من هذه المؤهلات في بناء زعامته. ولكن رأسماله الحقيقي الاصلي في تكوين الزعامة لم يكن في هذه الصفات، بل كان في مشاركته الشعب. فالعلاقة العضوية بينه وبين الشعب هي القوة الرئيسية التي في يده. فقد استطاع بهذه المشاركة للشعب في آماله وآلامه ان يجمع لنفسه المستمعين، وان يحول المستمعين الى معجبين. المشاركة، اذاً، رباط قلبي، في الناصرية، وليست وسيلة لسانية. انها علاقة عضوية، وليست تركيبا شكليا خارجيا . ان مميزات عبد الناصر وصفاته تدعم شعبيته ، بلا شك ، ولكنها لم تخلق هذه الشعبية ابدا. الذي خلقها هو حقيقة انعكاس الاماني والآمال القومية في شخصه. والبرهان على ذلك ان الظروف نفسها توافرت لغيره من السياسيين ولكنها عجزت عن جعل اي منهم زعيما عربيا قويا، في قرن ونصف القرن ، محبوبا ومحترما ومهابا ، مثله .

يقودنا الكلام في المؤهلات التي افاد عبد الناصر منها في تكوين زعامته الى التساؤل عن مدى افادته ، من الجهة الاخرى ، من الظروف التي رافقت صعوده الى سدة الحكم: اي مدى افادته ، كزعيم عربي ، من كونه مصريا ، من الطبقة الوسطى ، جاء بثورة عسكرية ، اثر حرب فلسطين .

كثيرا ما يسأل المرء نفسه هل استفاد عبد الناصر من كونه مصريا ، في الحصول على قيادة الحركة القومية العربية ، اكثر مما استفادت مصر نفسها بان اصبحت قاعدة هذه

الحركة بفضل رئاسة عبد الناصر عليها ، او العكس ؟ لا شك ان انتماء عبد الناصر الى بلد كمصر افاده من عدة نواحٍ . فمصر اكبر الدول العربية في عدد السكان وفي الامكانات واشهرها في المجال الدولي واعرقها في التاريخ واكثرها تمرسا في الاستقلال واقدمها في اثبات الوجود عالميا. وهي قاعدة الوطن العربي سياسيا وحضاريا ونفسيا وتقنيا وفنيا. وتحتفظ باعتبار خاص ، في نفوس المواطنين العرب ، لا يتوافر لاي اقليم عربي آخر ، من الناحية السياسية والنفسية ، حتى ولا للمدن ذات الاماكن المقدسة . كانت مصر قاعدة التعليم والثقافة والفكر والطباعة والنشر منذ القرن التاسع عشر ، وكانت قاعدة التحرر العربي والعمل القومي منذ ايام العثمانيين ، ثم ترسخ دورها العربي السياسي والتحرري من بعد تأسيس الجامعة العربية. وكان دورها في القضية الفلسطينية، منذ ١٩٤٨ ، الدور الرئيسي.

هذه الاعتبارات جعلت لاي حاكم لمصر مكانة خاصة بين الحكام العرب ؛ حتى فاروق تمتع بتلك المكانة الخاصة وكان له انصاره ومحبوه لجلوسه على عرش البلد الذي احبه العرب وناصروه . بل من قبل فاروق بنصف قرن جرت اتصالات بين احرار العرب في غربي آسيا وفي مصر لاعلان وحدة عربية بين المنطقتين، تتحرر من السلطتين التركية والبريطانية ويجلس على عرشها خديوي مصر عباس حلمي . ولكن لا فاروق ، ولا فؤاد ، ولا عباس حلمي ، ولا اي عاهل مصري آخر من قبل ، كان زعيما صحيحا للعرب . هذا هو الحد الفارق بين ما تعطيه مصر لحاكمها وبين ما يكوّنه الحاكم لنفسه . كان الحب العفوي اقصى ما كانت مصر توفره لصاحب السلطة فيها ، حب الجماهير العربية له دونما تزعيم . ما زاد على ذلك في مكانة جمال عبد الناصر العربية هو من صنع واستحقاق الرجل نفسه .

لقد اضاف عبد الناصر، في قيادته العربية ، الى الامكانات التي تمتع بها بفضل حكمه مصر وهي قاعدة العمل العربي ، روحا جديدة تميزت هذه القاعدة بها في عهده . فلم تعد مصر امل العرب بجمالها واهرامها وابي هولها ورموز الماضي ، كما كانت قبلا ، بل اصبحت املهم بثورتها وصناعاتها وجرأتها ومركزها الدولي ، وبشخصية رئيسها بالطبع. وهذا يشير الى ان مصر افادت من عبد الناصر، في تجديد مركزها العربي وبعثه على اسس جديدة، بقدر ما افادته في تأمين مركزها التقليدي له .

وعلاقة عبد الناصر بالطبقة الوسطى في مصر ، هي ايضا مصدر قوة له . علاقته مع هذه الطبقة ليست انه ابنها فحسب : فالانتماء العادي الى طبقة ما قد لا يعني الكثير على الصعيد السياسي . الى هذه الطبقة انتمى اصحاب اكثر من عهد عسكري — سياسي عربي في ربع القرن الذي سبق العهد الناصري . ومع هذا لم يكن هناك فرق ، في المدى البعيد، في سياسة هؤلاء المغامرين عن العهود التي سبقت ، التي كان ممثلو الاقطاع والرأسمالية يتحكمون فيها . العبرة هي في تنفيذ الاماني التي تحس الطبقة الوسطى عادة بها ، وهي

مان تمثل الشعب بشكل عام : كتنفيذ المشاريع الاقتصادية والاصلاحات الاجتماعية (العدالة والمساواة) التي كان ابناء هذه الطبقة والمهنيون والمثقفون يعانون من عدم تحقيقها اكثر من غيرهم .

لقد تبنى نظام الحكم الناصري في مصر هذه المشاريع والاصلاحات تبنيا كاملا . والزم الحركة القومية العربية بها ، في البلاد العربية باسرها ، حتى اصبحت اصلاحاته في مصر تقلد في كيانات اخرى . لذلك كسب عبد الناصر ثقة الجزء الاكبر من العرب ، وخاصة ابناء الطبقات المتوسطة والمهنية والعاملة: فهو الذي فتح لهم ابواب المساواة والعدالة لاول مرة في تاريخهم . ان ممثليهم يجلسون في مجلس الامة ويسيطرون على الاتحاد الاشتراكي ويديرون الصناعات والمرافق العامة المؤممة بصورة لم يحلموا بها من قبل .

غير ان هذه الاجراءات دعت الرجعية الى التكتل ضد الناصرية ومقاومتها ، على الصعيد المصري والعربي والعالمي . فخسر عبد الناصر ، بذلك ، صداقة اوساط كانت على استعداد لان تبايعه الزعامة ، او ان تستمر في المبايعة ، لو لم يلتزم الاصلاحات الاجتماعية والنهج الاشتراكي التزاما تاما .

خدم الحظ عبد الناصر بان ارتقى السلم نحو الحكم والزعامة في اعقاب حرب فلسطين ، اي بعد ان مني العرب باكبر خسارة في تاريخهم الحديث . واعترف هو ، في « فلسفة الثورة » ، باثر تلك المأساة في نفسه ونفوس زملائه من الضباط الاحرار . وكانت خيبة امل المواطن العربي بالزعامات وانظمة الحكم السياسية قد بلغت ذروتها بعد تلك الحرب . وعبر عن مشاعره ، سياسيا على الاقل ، بالتغييرات في انظمة الحكم التي حصلت في جميع الكيانات العربية في آسيا خارج شبه الجزيرة العربية ، في ثورات وانقلابات واغتيالات انتقامية تأديبية .

كانت تلك المحاولات انّة تذمر من الزعامات السابقة وسعيا للبحث عن زعامة صحيحة . ولكنها لم تكن ايجادا لزعيم . ادرك الواعون من المواطنين ان الزعيم يأتي بنفسه ؛ لا يحتاج لمرسوم تعيين ، ولا يحتاج لمن يلتقطه من غياهب العدم او النسيان ، بل هو يظهر بنفسه . ولكنهم ادركوا ، من جهة اخرى ، ان الزعامات السابقة قد فشلت ، ولذلك اخذوا يترقبون مولد الزعيم العتيد . من هنا استفاد عبد الناصر من التجربة ، اذ وجد شعبا يتضرع الى الله الا يحرمه الزعيم والا يؤخر مجيئه . غير ان التجربة لم تحمله الى الحكم ولا الى الزعامة ، كما حملت الثورة العربية الهاشميين من قبل ، مثلا ، وكما حمل الانكليز كثيرا من زعمائنا . علاقته بحرب فلسطين ، وبقضية فلسطين بوجه عام ، انه وعى القضية وعيا تاما ، اولا ، واخذ على عاتقه مهمة العمل من اجلها ، ثانيا ، وانه ، ثالثا واخيرا ، التزم اداء هذه المهمة منذ اليوم الاول لعهده .

مرة اخرى نجد في سياسة عبد الناصر الفلسطينية ما يرهق زعامته بالمشاكل مثلما نجد فيها ما يدعم هذه الزعامة ويقويها . فهي تدعمها في الاساط الوطنية التي يشكل الايمان الناصري بعدالة القضية الفلسطينية انعكاسا لايمانها هي . ولكنها تهدد هذه الزعامة باثارة عداء تلك الاوساط التي تقيد نفسها وفكرها بالارادة الخارجية. ليس عجيبا ، اذاً، ان تضعف الزعامة الناصرية في الاوساط التي لم تع القضية الفلسطينية بعد وعيا كافيا ، وفي حلقات السياسيين والحكام الذين تآمروا على فلسطين في محنتها ولا يزالون الى اليوم . ان معظم متاعب عبد الناصر الدولية ، الكثيرة بلا شك ، تأتيه بسبب ولائه للمطالب العربية القومية في فلسطين .

اما استعمال عبد الناصر للقوة في الوصول الى السلطة ، وتطبيق نظام حكم حازم بعد ذاك ، فقد افادا زعامته العربية بمثل ما فوتا عليها بعض الفرص . افاداه لانه لم يكن من سبيل الى الحكم (الى ارساء قواعده ثم الذود عنه) بدون القوة والحزم. فاخترق بالجيش حصن السلطة الذي ما كان اصحابه ليسلموه الى ممثلي الشعب الا بالقوة . وحمى النظام بالجيش ، وحمى البلاد بالجيش . لا ينكر عبد الناصر فضل الجيش في اقامة النظام الحالي ، ولكنه ينكر ان يكون هذا النظام نقيضا للديمقراطية وما في الديمقراطية من فضائل. بل هو يريد نظامه ، ويرى فيه ، غرسا للفضائل والقيم التي عجزت الديمقراطيات المشوهة الماضية عن ايجادها في بلادنا .

لا يجد عبد الناصر صعوبة في اقناع العرب بوجهة النظر هذه ابدا، لان الاغلبية العربية تعتبر النقاط التالية حقائق برهنتها الاحداث : اولا ، كان الجيش ، الى ما بعد الحرب الفلسطينية ، المؤسسة النظيفة الوحيدة التي لم تلوثها السياسة والتي لم تسهم في تلويث الديمقراطية، والمؤسسة الوحيدة القادرة على ايقاف السياسيين المحترفين والمنتفعين عند حدهم واعادة العدالة والحقوق المغتصبة . ثانيا ، الجيش مدعو ، بعد ان يطرد الصيارفة من الهيكل، الى الوقوف بحزم امام اعداء البلاد الكثيرين، لان عليه ان يلعب دوره الخاص في معركة فلسطين القادمة على الاقل. ثالثا، ان الديمقراطية العربية فشلت، وفشلت معها الانظمة النيابية والحزبية التي اختبرها العرب بين الحرب العالمية الاولى وحرب فلسطين . لذلك لا بد من تجربة انظمة جديدة في الحكم ، او بالاحرى ، مفهوم جديد للديمقراطية نفسها . اما ان يعاب على عبد الناصر حزمه فتجاهل للواقع الذي ذكرناه في اول المقال وهو ان فكرة « القوي العادل » كانت مثالا اراد العرب من زعمائهم ان يتشبهوا به . والعربي لا يكره الحزم اذا كان الحزم من اجل العدالة وخير المجموع ، وهو لا يعارض استعمال القوة في سبيل استعادة الحقوق وفرض النظام . ان شكواه المزمنة من الاستبداد الظالم ومن حرية الفوضى والخراب ، تجعله اكثر تمسكا بالنظام الحازم الذي يحقق العدالة. غير ان عبد

الناصر يخسر ، في الوقت نفسه ، تعاون فئتين من الشعب : فئة المنتفعين السابقين بالظلم والتفاوت ، وفئة المؤمنين الخياليين بالحرية التقليدية التي ترفض اي نوع من القيد .

يخطىء ، اذاً ، من يأخذ جانبا واحدا من اثر الظروف التي تحيط بجمال عبد الناصر ويزعم ان ذلك الجانب يقرر مصير زعامته . عليه ان ينتبه الى الجانبين معا وان يراعي اعتباراتهما المختلفة والمتناقضة . ويخطىء ، ايضا ، من يبالغ في تصوير الاثر السلبي او الايجابي . فلا الاثر السلبي استطاع ان يقوى على هذه الزعامة بالرغم من المشاكل الكثيرة والكبيرة التي تعترض سبيلها في كل خطوة من خطواتها في ثلاثة عشر عاما ، ولا الاثر الايجابي يستطيع ان يتبجح بالزعم انه كوّن هذه الزعامة : فان الظروف المذكورة لم تكوّن الزعامة الناصرية : يعود الفضل في تكوين هذه الزعامة الى الرجل نفسه (الى حيويته ومعتقداته واخلاصه وايمانه ونشاطه) وصدى ذلك في الشعب الذي ربته التجارب المرة وارشدته احاسيسه التلقائية البسيطة السليمة الى معرفة الجيد من الرديء بعد اختبارات قرن ونصف قرن . اما العوامل الاخرى فقد ساعدت عبد الناصر بمقدار ما خربت عليه : افتخر به المعجبون بمصر بمثل ما عاداه الحاقدون على مصر . ورحب المواطنون بزعيم من صفوفهم بمثل ما سخر الوجهاء من ابن موظف بريد يتطاول على مناصب المنتسبين الى قريش. ورأى فيه القوميون الثوريون املا بالخلاص ورأى فيه الطائفيون والانعزاليون والاقليميون غولا يبتلع آمالهم .

هناك من يريد الغلبة لعبد الناصر . وهناك من يرجو ، ولو سرا ، الا يموت التنين . هناك من يسهم في المعركة ، مع عبد الناصر او ضده ، وهناك من يكتفي بالمراقبة . ولكن ما من واحد من هؤلاء ينكر انه امام معركة جبارة طويلة الامد ، هي اخطر معركة مصيرية خاضها العرب في القرون الحديثة ، ذات آثار تتعدى الزمان والمكان والشكل السياسي وتمتد الى كل ناحية من النواحي العربية المعاصرة والمقبلة . لا مبالغة في القول ان مصير العرب يتوقف على نتيجة هذه المعركة ، وان مستقبل ثمانين مليون عربي يرتبط بالنتيجة الى ابعد حد . من هنا كان عبد الناصر في اذهان الامة ، وفي افكارها وعلى السنتها . وهو ، الى جانب ذلك ، في قلوب اغلبية افرادها . فبالنسبة الى هذه الاغلبية فعل عبد الناصر بعض ما فعله صلاح الدين : انطلق من مصر في الارض العربية يذود عن الحمى ويتعقب الاستعمار ويلم الشمل ؛ وحقق بعض ما دعا اليه حكيم الشرق في شخصية القوي العادل : شيد النظام الاجتماعي الذي يؤمّن العدالة والمساواة . انها تراه يعتلي صهوة الجواد وينازل التنين المتعدد الرؤوس . لقد نما التنين ، من امتصاص دماء الشعب وتغذية الاستعمار والمفاسد ، طوال اجيال ؛ ومن غير المعقول ان يتم الاجهاز عليه في ثلاثة عشر عاما .